عزالدين بن عبد السلام

.. ياعزالدين بن عبدالسلام..
ما أشد حاجتنا إلى أن نستشرف وجهك الكريم في هذه الأيام، وأن نتذكّر قوتك بالعلم، وعزّتك بالإسلام، وفرحك الذي لافرح بعده بالحق حينما لاينتظر الناس، وإنما يتجول بحثاً عنهم، وحباً فيهم.

فلقد أنضجك الإسلام إلى الحد الذي لم تعرف فيه المساومة، أو أنصاف الحلول فالحق هو الحق، والحق هذا يجب ألا يكون سيفاً يُشهر ويُغْمد، شمساً تظهر ثم تغيب.. ذلك لأنه باق أبداً ماثل أبداً!!

ودعوتك إلى الحق هذه - ياعزالدين بن عبدالسلام - هي التي جعلتك تدعو إلى إسقاط ملك في دمشق من أعلى عرشك.. من المنبر!

وهي التي جعلتك في القاهرة تقوم بعملية بيع لأمراء المماليك وتتم عملية البيع بالفعل، وهم يومئذ السادة المسيطرون.. ولكنك أردت إذلال الطيش بالحق، وأردت ضرب القوة الجوفاء في الصميم.. وتم ذلك في جمهرة كبيرة من الشعب.

.. وقد عرف لك الناس قدرك حتى الأعداء.. فحين رآك وفد الصليبيين القادم إلى السلطان قال: «لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءها» وحين يجادلك الملك أيوب في أمر كان يفعله أبوه، ترفع صوتك عليه قائلاً «ياأيوب.. هل أنت ممن يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون». فلا يملك الملك إلا الصمت، وإلا تنفيذ ماأردت!

.. أما الشعب نفسه فقد أطلق عليك ألقاباً كثيرة.

قال إنك : سلطان العلماء.
وقال إنك : بائع الملوك.

.. يا عزالدين بن عبدالسلام..
ستظل دائماً كلماتك عن الجهاد محفورة في أعماق الشعب الذي أحببته، وما أجدر كل المسلمين الآن أن يرددوا معك قولك «الجهاد ضربان: ضرب بالجدل والبيان، وضرب بالسيف والسنان، وسلاح العالم علمه ولسانه كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه، وكما لايجوز للملوك إغماد أسلحتهم، لايجوز للعلماء إغماد ألسنتهم».

.. يا سلطان العلماء ويا بائع الملوك.
ما أحوجنا إلى التعرف عليك!

بقلم:
أ.د. عبده بدوي

عاش عزالدين بن عبدالسلام وتألق كأعظم مايكون التألق في الفترة التي حكمت فيه الأسرة الأيوبية مصر والشام، وفي فترة القلاقل التي حدثت بعد مقتل «تُوران شاه».. وقد شاهدت هذه الفترة فتح العديد من المدارس، وتحولا من الفقه الشيعي إلى الفقه السني كما شاهدت التقاءً ذكياً بين علوم الدنيا وعلوم الدين، وقد كانت النهضة شاملة إلى الحد الذي نعرف فيه أن صلاح الدين الأيوبي كان يتلقى دروس الحديث وهو في ميدان القتال، وأن السلطان الكامل نال عدة إجازات علمية وكتب تعليقاً على صحيح مسلم، وأن أخاه عيسى ألف كتاباً في الفقه الحنفي، ورصد عدة جوائز في عدد من فنون الدين واللغة.. والملاحظ أن المؤلفات في هذه الفترة قد استوحت الواقع الإسلامي، والظروف المتوترة التي عاش فيها فقد كان هناك عدد كبير من العلماء اتجهوا إلى الإسهام في الواقع السياسي والاجتماعي، وفي متطلبات عصر الحرب الذي كانت سائدة في هذه الفترة على نحو مانرى من القاضي بهاءالدين بن شداد الذي ألف كتاباً في فضائل الجهاد، وعلى نحو مانرى في مؤلفات ابن تيمية..

أما العز بن عبدالسلام الذي ولد في دمشق عام ٥٧٨هـ فقد تزود من كل علوم عصره، وبرع فيها، وسافر إلى بغداد من أجل استكمالها، بحيث كان جديراً بأن تسند إليه وظائف التدريس، والإفتاء، والخطابة، والقضاء، وقد كان في كل هذه الأعمال صوتاً رائعاً من أصوات الحق.

ومما يذكر له في هذا أن السلطان الأشرف بن الملك العادل كان يقرب إليه علماء الحنابلة، ويرى رأيهم في أن مايوجد في القرآن هو كلام الله ذاته، وبهذا يكون كلام الله حرفاً وصوتاً، وقد أراد بعض علماء الحنابلة أن يوقعوا بين الشيخ وبين السلطان الذي يتعصب لرأيهم، وكان أن طلبوا منه الإفتاء في هذا الأمر الذي ماكاد يصل إليه خبره حتى قال:

«هذه الفتيا كتبت امتحاناً لي، والله لا كتبت فيها إلا ماهو الحق».

وكان أن رد بأن وصف الله بأنه متكلم بكلام قديم أزلي ليس بحرف ولاصوت، ولايتصور في كلامه ـ على حد قوله ـ أن ينقلب مداداً في الألواح والأوراق.. وقد غضب السلطان لهذا، وجمع إليه العلماء فظاهروه على رأيه خوفاً منه، وما كان منه إلا أن أرسل إليه من يبلغه بأمر عزله، فما كان من العز إلا أن قال للرسول الوافد عليه من السلطان:

«لو كانت عندي خِلْعَةٌ تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك.. خذ هذه السجادة وصلِّ عليها».

وحين علم السلطان بهذا قال:

«ماذا أفعل: هذا رجل يرى العقوبة نعمة!»

وقد تدخل في هذا الأمر بين الشيخ والسلطان الشيخ الحصيري الذي قال للسلطان إن من يقول بإثبات الحرف والصوت فهو حمار، ومع أن السلطان عرف أنه يقصده بكلمة «حمار» إلا أنه رجع إلى الحق،

■■ دعوتك جعلتك تدعو إلى إسقاط ملك في دمشق من أعلى عرشك.. من المنبر.

■■ ماأجدر المسلمين الآن أن يرددوا قولك: «الجهاد ضربان.. ضربٌ بالجدل والبيان، وضرب بالسيف والسنان».

■■ لم يتركه المسلمون يتوجه وأسرته، وحدهم، إلى الشام.. بل لحق به غالبيتهم.

■■ ياعز.. لقد انتصر المسلمون على التتار والصليبيين لأنه كان بينهم رجل مثلك.

وطلب الشخ عزالدين ليسترضيه.

.. وماكانت تنتهي هذه الفتنة المعروفة «بفتنة الحنابلة» مع السلطان الأشرف، حتى رأى السلطان الصالح إسماعيل ـ الذي خلف السلطان الأشرف ـ تستيقظ في نفسه ذكرى قديمة، فقد كان وهو أمير يحب لعبة تسمى «رمي البندق» وقد طلب رأي الشيخ في هذا فرد بقول النبي عليه السلام «إنه يفقأ العين ويكسر العظم»، وقد بلغ هذا الخلاف إلى مداه حين تحالف هذا السلطان مع الصليبيين، فما كان منه ـ أي العز بن عبدالسلام ـ إلا أن صعد المنبر ثم أعلن في حديث طويل أن السلطان قد خان الله والمسلمين، وأن الخائن لا ولاية له!

فما كان من السلطان إلا أن أمر بسجنه، وقد فكر في هذه الفترة في الهجرة إلى مصر، وواتته الظروف بالخروج إليها، ولكن رسولاً من السلطان أدركه وطلب منه أن يعود للسلطان، وأن يتودد إليه بتقبيل يده ليرد عليه مناصبه.

فما كان منه إلا أن قال للرسول:

«والله يامسكين، ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً عن أن أقبل يده، ياقوم.. أنتم في واد وأنا في واد».

... وفي مصر تولى العديد من المناصب، وحين وصل إلى منصب قاضي القضاة تبين له أن أمراء المماليك الذين يحكمون البلاد لا يخرجون عن كونهم جماعة من العبيد، وأن ثمنهم لما كان قد دفع من خزانة الدولة فمعنى هذا أنهم ملكٌ للدولة، وفي ضوء هذا يجب ألا يتصرفوا إلا في حدود تصرف الرقيق، ثم تقدم إلى تنفيذ الفكرة التي عرضت له بشأن هؤلاء الأمراء فكان لايجيز بيعهم، ولا شراءهم، ولا نكاحهم، ولا أي نوع من أنواع المعاملة التي يتعاملون بها مع الناس.

.. ولما كان هؤلاء الأمراء ـ كما قيل عنهم ـ سادة الناس وحكام الأرض، فإن هذا الأمر أحدث ضجة عظيمة وحين سألوا الشيخ في هذا قال بلا تردد:

«نعقد لكم مجلساً وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي!»

وحين غضب السلطان والأمراء لهذا الأمر، جمع أسرته ثم توجه إلى الشام، ولكنه ماكاد يضرب في الطريق، حتى كان قد لحق به غالب المسلمين.. ومن كتبوا عن هذه الفترة يقولون إنه حتى النساء وحتى الصبية ساروا وراء الشيخ، وكان موقفاً عصيباً على السلطان والأمراء وحين همس رجل للسلطان «تدارك ملكك، وإلا ذهب بذهاب الشيخ أسرع ووراءه أمراءٌ لرد الشيخ عز الدين ابن عبدالسلام، وحين تقابلا وجها لوجه استعطفه، وذكر له أنه يوافق على بيع أمراء الدولة في «المزاد»!

... وتمت عملية النداء على الأمراء في المزاد، وبيعهم ثم رد أثمانهم إلى خزانة الدولة للصرف منها على مصالح المسلمين.

... وأخيراً فإذا كان عزالدين بن عبدالسلام قد دعا إلى خلع سلطان من على المنبر لأنه تحالف مع الصليبيين، فإن له موقفاً رائعاً كذلك من التتار حين زلزلوا العالم الإسلامي، فقد وافق في مجلس الشورى الذي عقد لهذا الأمر على عزل السلطان الصغير السن المسمى علي، وتولى قطز مكانه، ولكن المماليك حين طلبوا أن يجهز الشعب حملتهم ووافق كل العلماء على ذلك.. وقف عزالدين بن عبدالسلام ثم رفض أن يكون هناك تمييز بين المماليك وبين الشعب، ورفض أن يثري المماليك من وراء الاتجار بهذه الحرب، وكان أن قال في خطبة له على نحو ما ورد في كتاب النجوم الزاهرة.

«إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم «الإسلامي» قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية.. ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه، ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة، مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا».

.. ياعزالدين

لقد انتصر المسلمون على الصليبيين والتتار لأنه كان في الإسلام رجال مثلك، ولقد عشت تصارع السلاطين، وتبيع الأمراء، ولقد كنت من الرهبة بحيث إن جنازتك حين مرت على السلطان الظاهر بيبرس قال:

اليوم قد استقر لي ملكي، فلو أن هذا الرجل أمر الناس في أمري بشيء لأطاعوه.

ياسلطان العلماء.. عليك رحمة الله